

تفسير ابن كثير

* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً^ج فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال تعالى : (انفروا خفافا وثقالا) [التوبة : 41] ، وقال : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) [التوبة : 120] ، قالوا : فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها ، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا : النفير المعين وبعده ، صلوات الله وسلامه عليه ، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد ؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعا

ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعني :

عصبة ، يعني : السرايا ، ولا يتسروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا ، وقد تعلمناه . فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أخرى ،

فذلك قوله : (ليتفقهوا في الدين) يقول : ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا

السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون) . وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، خرجوا في البوادي ، فأصابوا من الناس معروفا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم :

ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا . فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الله ، عز وجل

: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير ، (ليتفقهوا [في الدين])

وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله بعدهم ، (ولينذروا قومهم) الناس كلهم (إذا

رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . وقال قتادة في هذه الآية : هذا إذا بعث رسول الله صلى

الله عليه وسلم الجيوش ، أمرهم الله ألا يعرفوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها ، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم . وقال الضحاك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه ، إلا أهل الأعذار . وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه ، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن ، تلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا . فيقرئونها ويفقهونهم في الدين ، وهو قوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول إذا أقام رسول الله (فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعني بذلك : أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا ، وقعد معه عظم الناس . وقال [علي] بن أبي طلحة أيضا عن ابن عباس : قوله : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فإنها ليست في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجذبت بلادهم ، وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة

من الجهد ، ويعتلاوا بالإسلام وهم كاذبون . فضيقوا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم . فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله إلى عشائريهم ، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله : (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة ، فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم . فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم ، ويقولون لنبي الله : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا [ما نقول] لعشائرينا إذا قدمنا انطلقنا إليهم . قال : فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة . وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو منا ، وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة . وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية : [الشريعة] (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) [التوبة : 39] ، و (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا) [عن رسول الله] [التوبة : 120] ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن

محمد ولم ينفروا معه . وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله ، عز وجل : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) الآية ، ونزلت : (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له) الآية [الشورى : 16] . وقال الحسن البصري : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) قال : ليتفقه الذين خرجوا ، بما يردهم الله من الظهور على المشركين ، والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .